

نشأة وتطور المدن العراقية (البصرة إنموذجاً)

أزهار غازي مطر*

ملخص

أجمعت المصادر التاريخية والجغرافية على إن البصرة هي أول مدينة مصرت في الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية، إذ تم بناؤها عام 14 على يد الصحابي عُتْبة بن غزوان، ولعل الدافع الرئيسي الذي دفع الخليفة أن يأمر بتصويرها هو الدافع العسكري المتمثل برغبة الخليفة بإيجاد قاعدة عسكرية في جنوب العراق لتجمع القوات العربية الاسلامية فيها ومن ثم انطلاقها لتحرير الاجزاء الجنوبية من العراق، وقد تحولت البصرة الى مدينة كبيرة ومركز اداري يُشرف على منطقة واسعة ضمت مُدناً وأقاليم متعددة، وان الموقع الجغرافي المتميز للبصرة ومساحتها الواسعة جعلها من أكثر المدن كثافة سكانية، فالبصرة متنوعة الموارد من الجوانب الاقتصادية ويأتي في مقدمة مواردها الاقتصادية النفط، اضافة الى مواردها الزراعية وفي مقدمتها النخيل، وكانت الطريقة المتبعة أن يبنى اولاً المسجد ثم تُبنى حوله الدور السكنية والاسواق، وقد خُطت وفق القبائل على الاحماس، ويعد مسجد البصرة ثاني مسجد بني في الاسلام بعد المسجد النبوي، أما الناحية الثقافية في البصرة حيث يعد المسجد المكان العام لأكثر أوجه الحياة في المدينة الاسلامية حيث مقر الحكم وتقام فيه الطلاة، وتفض فيه المنازعات ويلتقي فيه بالوفود وتعد فيه الاتفاقيات وحلقات الدرس، إذ كان جامع البصرة أشبه بجامعة مُصغرة تُلقى فيه حلقات الدروس لمُختلف العلوم، لذا جاء بحثي هذا مُبيناً فيه دوافع انشاءها وخطط المدينة والمراكز الحضارية المهمة فيه وغيرها من المواضيع الموجودة في ثنايا البحث.

الكلمات الدالة: البصرة، المدن العراقية، تطور.

التسمية:

البصر والبصرة: الحجر الابيض الرخو(ابن منظور، 1968: ج1/ص67، واخرون)، وقيل هو الكذان فإذا جاءوا بالهاء قالوا بصره، وجمعها بصار، والبصرة والكذان، كلاهما الحجارة التي ليست بصلبة سُميت بها البصرة(ياقوت الحموي، ج 1، ص 637)، والبصر: حُسن العين(الفيروز آبادي، 1983: ج 1، ص 73)، والبصر الحجارة الى البياض فإذا جاءوا بالهاء قالوا بصره. وقد كان العرب يُطلقون على منطقة البصرة اسم ثغر الهند وخرج الهند والسند(ابن سعد، 1960: ، ج7، ص6)، وكذلك يُطلقون عليها الابل(البلاذري، 1956: ص250). وان سبب تسميتها بأرض الهند والسند هو وجود هذه الاجناس الابله قصد الميناء الرئيس في العراق، ويرتاد اليها التجار من بلدان مختلفة كالهند والسند والصين(البلاذري، ص 349)، وقيل انها الارض الغليظة(المقدسي، 1909: ص118)، أو الارض ذات الحجارة الرخوة التي فيها بياض(المقدسي: ص118)، والبصرة الحجارة الصلبة(ياقوت الحموي: ج 1، ص639)، أو هي الارض الغليظة التي فيها حجارة تُقلع وتُقطع حوافر الدواب(ابن منظور: ج 1، ص 67)، وسُميت بصره لشدها وغلظتها كما تقول ثوب نو بصر إذا كان برده شديد جداً (ياقوت الحموي: ج1، ص 636). وعندما وصل العرب المسلمون الى البصرة وارادوا النزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحص عليها فقالوا هذه الارض بصره ويعنون خصبة فُسُميت بذلك(ياقوت الحموي: ج1/ص636)، والبصرة الطين العلك (ابن منظور: ج 1، ص 67)، وقيل الارض الطيبة الحمراء(ابن منظور: ج 1، ص 67). ويذكر ان اول من أطلق اسم البصرة عليها هو الخليفة عمر بن الخطاب ؓ دون ان يراها، وذلك عندما بعث اليه عُتْبة بن غزوان كتاباً يصف فيه ارضها فيقول " ارضاً كثير القضة في طرف البر الى الريف ودونها مناقح فيها ماء وفيها قصباء.... "، قال عمر: هذه ارض بوضرة قريبة من المشارب والمرعى والمُحتطب " (البلاذري: ص354) والبصرة ارض فيها حجارة بيضاء خشنة (الطبري: ج3، ص391) وسموها بصره لرخاوة أرضها(البكري، 1945: ج1،

* كلية التربية الاساسية، جامعة ديالى، العراق. تاريخ استلام البحث 2019/1/7، وتاريخ قبوله 2019/4/28.

ص354)، وقيل ان العرب المسلمون اقبلوا نحو الابلبة فما ان وصلوا المريد وحدوا الكذان فقالوا ما هذه البصرة؟ (الطبري، تاريخ، ج3، ص391)، وسُميت بذلك لأنه كان فيها والبصرة الحجارة الرخوة تضرب الى البياض (ابن البكري، معجم ما استعجم، ج1، ص254).

موقع المدينة وحدودها

يحد البصرة من جهة الشرق شط العرب (ابن رسته، 1891: ص 94)، الذي كان يُطلق عليه " دجلة العوراء " (المسعودي، 1938: ص 47)، والمسافة بينها وبين شط العرب ويخط مستقيم مسافة أربعة فراسخ (البلاذري، فتوح البلدان، ص 364). وتقع الى الشرق منها مدينة الابلبة (ابن حوقل، 1969: ص 214). وهي أقدم نشأة من البصرة.

ويحد البصرة من الغرب بادية العرب بشكلٍ مقوس (البلاذري: ص 364)، ويُطلق على البادية التي تتاخمها بادية الصحراء وهي امتداد لشبه جزيرة العرب وتنتشر في جهاتها الغربية احجار خشنة هي امتداد لأحجار الحجاز (ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 168)، وهي عبارة عن ارض خالية من الزرع والاشجار والعمران وتحدها من الشمال البطحية وتخرج انهار صغيرة وكبيرة من جهة (ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 168) البطحية الجنوبية تحمل مياه البطانح السفلى الى دجلة العوراء وكانت حدود البطحية الجنوبية تُدعى الطفوف وهي ليست ثابتة إذ تتقدم باتجاه البصرة وقت الفيضان (ابن رسته: ص 94)، ويحد البصرة من الجنوب الخليج العربي (ابن الفقيه: ص 168). والبصرة القديمة هي ليست البصرة الحالية من حيث الوضع فالبصرة الحالية على ضفتي شط العرب وبضمنها تقه الآن منطقة تفرع نهر الابلبة من شط العرب والذي يُطلق عليه الآن نهر العشار (اليقوي، 1918: ص 323). اما طبيعة السطح فهو مُنخفض لا يزيد ارتفاعه عن مستوى سطح البحر أكثر من أربعة أمتار وهي بطيئة الانحدار إلا ان الجهات الغربية من البصرة يزداد ارتفاعها كلما اتجهنا نحو البادية (اليقوي: ص 323). وان أقدم وصف للبصرة في صدر الاسلام هو ما وصفه الاحنف بن قيس عند قدومه مع وفد أهل البصرة الى الخليفة عمر بن الخطاب بناءً على طلب الخليفة كي يتعرف على الظروف الجديدة التي يعيشها العرب فأخبره " انا نزلنا سبخة بشاشة فداها ولا نبئت مرعاها وناحتها من قِبَل المشرق البحر الاجاج ومن قِبَل المغرب الفلاة فليس لنا زرع يأتينا منافعا وميرتنا في مثل مرئ النعامة يخرج الرجل الضعيف فيتعذب المساء من فرسخين وتخرج المرأة لذلك فترقب ولدها كما يريق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع فالأ ترفع خسيستنا وتجبر فاقتنا نكن كقوم هلكوا، فألحق الخليفة عمر ذراري اهل البصرة في العطاء وكتب الى ابي موسى يأمره ان يحفر لهم نصراً (ابن الفقيه: ص 189). وكانت هذه المنطقة قبل تمصر البصرة ساحة صراع بين الفرس والعرب لذلك كانت مهملّة من الناحية العمرانية والزراعية (ابن الفقيه: ج 2، ص 382).

دوافع انشاء مدينة البصرة:

لقد احتلت البصرة مكانة مرموقة في سفير التاريخ لكونها إحدى قواعد الانطلاق في فتح المشرق لنشر راية الاسلام في تلك المناطق النائية، وهناك عدة دوافع أدت الى انشاء مدينة البصرة وهي: الدافع العسكري والدافع الاداري والدافع الاقتصادي، أما الدافع العسكري فمن الملاحظ ان الخليفة عمر كان يؤكّد اتخاذ موضع حربي في كافة المكاتبات التي جرت بينه وبين عُتبة بن غزوان عندما بعثه الى منطقة الابلبة فأوصاه ان ينزل أقصى ارض العرب وادنى ارض العجم (الطبري: ج 3، ص 591)، وان يجعله قريباً من الماء والمرعى والمُحتطب (البلاذري: ص 354). وهذه هي المستلزمات الاساسية لحياة المقاتلة، كما ان الخليفة عمر أكد ان لا يكون بينه وبين القوات العربية مانعاً مائياً (الطبري: ج 3 / ص 593)، لأنه يُعرقل مهمة وصول الامدادات إليها بسرعة ولا يُسهل عملية الانسحاب والمناورة (البلاذري: ص 354)، وكانت مهمة عسكرية قتالية وعندما أنتخب موضع الخريبة ليكون معسكر لجنده أخذ الخيام والقباب والفساطيط مسكناً لهم وأمر الخليفة عمر ان يتخذ لجنده منزلاً واحداً (البلاذري: ص 354) ولا يفرقهم في أماكن عدة لأن اجتماعهم في موضع واحد يجعلهم أكثر فاعلية وقوة في مواجهة اعدائهم، ومن هنا نلاحظ ان الدافع العسكري هو الدافع الرئيسي لتأسيس مدينة البصرة (ناجي، 1986: ص 146).

أما الدافع الاداري فيتضح من خلال ارسال الخليفة عمر عُتبة بن غزوان الى منطقة الابلبة قال له " اني استعملتك على ارض الهند " (الطبري: ص 953) لذلك نلاحظ ان البصرة اضطلعت بدورها الاداري منذ وقت مبكر، فكانت حدودها الادارية تتمو وتتسع وفق حركة الفتوح فعندما يفتح القائد منطقة جديدة يتولى ادارتها (البلاذري: ص 355). وعند تخطيط البصرة تم تحديد مركزها الاداري المتمثل بدار الامارة وبعدها أختط السجن والدواوين بالقرب منها (البصري: ص 28)، سرعان ما اتخذت البصرة

دوراً ادارياً تمثل في ادارة الاقاليم المجاورة لها خاصة تلك التي تم فتحها على ايدي مقاتلة البصرة واتخذ امير البصرة دار الامارة مقراً للحكم ترتاده الناس لقضاء حوائجهم واستماع الامير إليهم، ويستخلف امير البصرة من ينوب عليه في حالة غيابه او استدعاء الخليفة له (الطبري: ج 4، ص 69).

أما الدافع الاقتصادي فيبدو ان مدينة البصرة قبل تمصيرها كانت تُسمى ثغر الهند او ارض الهند لأن مدينة الابله اضطلعت بدور تجاري كبير في المنطقة وكانت ترسو فيها السفن من عمان والبحرين وفارس والهند والصين (الدينوري، 1960: ص 117) لغرض التبادل التجاري الذي يتم عن طريق ميناء الابله، وعندما بُنيت البصرة وشُقت فيها الانهار من شط العرب قل دور الابله التجاري وتحولت التجارة الى مدينة البصرة وصارت الابله ميناء للتجار البصريين (ابن رسته: ص 185) إذ كانت السفن التجارية تأتي من المحيط الهندي ثم تمر عن طريق الخليج العربي فتدخل نهر الابله ثم تصل الى البصرة وبعدها تتحرف شمالاً عن طريق نهر ديبس الذي يصل بين نهري الابله ومقل فتصعد في نهر مقل الى ان تصل شط العرب ثانية (الطبري: ج 5، ص 79).

مكانتها التاريخية والحضارية

هناك عدة عوامل هامة أسهمت في تقدم البصرة وتطورها الكبير عبر التاريخ العربي الاسلامي كان من أهم هذه العوامل ما يأتي:

1. الموقع الجغرافي وهو العامل الاقوى والاساس الذي أدى دوراً كبيراً في وصول مدينة البصرة الى هذه المكانة التاريخية والحضارية (البصري: ص 227). فالبصرة لقربها من شط العرب وكثرة الانهار التي عدة ايام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة ألف نهر وهذا الرقم مبالغ فيه كما يرى (ابن حوقل) فضلاً عن بساتين النخيل، الاراضي الزراعية الواسعة فيها، كما كان لوقوع البصرة على مفترق الطرق كطريق اليمامة وطريق مكة وطريق الاحواز اكسبها أهمية جغرافية (ناجي: ص 147)، فضلاً عن ذلك موقعها التجاري إذ كانت تُعرف سابقاً بأرض الهند او ثغر الهند وكذلك للدور التجاري الذي لعبته الابله إذ كانت ميناءها الذي ترسو فيه السفن من عمان والبحرين وفارس والهند فشهدت (الدينوري: ص 337) تبادلاً تجارياً واسعاً كما كان لتمصير البصرة وشق الانهار لها من شط العرب مثل نهر الابله ونهر المقل ادى الى ان قل دور الابله التجاري وتحولت التجارة الى مدينة البصرة وصارت الابله ميناءاً للتجار البصريين (ناجي: ص 141). وتبوأت البصرة المركز التجاري الاول في العراق لا سيما بعد ان انتقلت الخلافة الى بغداد وازدهرت التجارة في البصرة وذلك عن طريق الممر المائي الذي تطل منه على مختلف انحاء العالم (ناجي: ص 147). فضلاً عن ذلك وجود سوق المرید الذي يمثل منطقة تبادل تجاري بين سكان العرب البوادي وسكان الحضر وقد نشطت الحركة التجارية في البصرة بسبب موقعها بين بيئتين مختلفتين البادية والحضر (ناجي: ص 140).

2. العنصر السكاني والبشري: فقد نزل البصرة مئة وخمسون صحابي وهو عدد يبين دون شك ان من قطن البصرة من الصحابة كان كثيراً قياساً بمن سكن في الامصار الاسلامية الاخرى (ناجي، 1991: ص 28).

3. فقد نزلها مؤسسها وقائدها الصحابي عُتْبَةُ بن غزوان بن جابر بن نسيب بن مالك بن حارث بن عوف بن مازن بن منصور عكرمة بن حصيفة بن قيس بن عيلان بن مضر (ت 17 هـ) وكان من أوائل المسلمين هاجر الى الحبشة وممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ (ابن سعد: ج 3/ص 98 - 99).. وكان ابو الاسود الدؤلي: ظالم بن عمر بن سفيان، وقيل ظالم بن عمرو بن جندل سكن البصرة (ت 96 هـ) (ابن خلکان: ج 1، ص 240) وهو مؤسس علم النحو فيها.

وقالوا: ستاً في البصرة بالكوفة مثلهم (الحسن البصري، والاخفش، وطلحة بن عبدالله، وابن سيرين، ومالك بن دينار، والخليل بن احمد الفراهيدي) (ابن خلکان: ج 1/ص 241). ومع مرور الايام اخذ عدد الصحابة يتناقص بسبب وفاتهم، ويبدو ان آخر صحابي توفي في البصرة هو انس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد (ت 92 هـ) وقد كانت اسهامات الصحابة في البصرة في شتى مجالات الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

4. كونها مقراً لقيادة جيوش المسلمين فقد كانت القوات العسكرية في العراق تعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على القبائل العربية التي تسكن مدينة البصرة وعلى بقية الصحابة المجاهدين الذين شهدوا بدرًا مع الرسول ﷺ وغيرها من الغزوات والفتوح التي قادها المسلمون بعد الرسول ﷺ ففتحوا عدداً من الاقاليم مثل اقليم سجستان واطليم خراسان واطليم كرمان، وكل

هذه الاقاليم التي فتحها المسلمون كانت تنطلق اليها القوات العربية الاسلامية من البصرة والكوفة وبهذا كانت البصرة الاداة الفعالة والقادرة على تحرير الارض العربية ونشر الدين الاسلامي في العالم (ياقوت الحموي: ج 1، ص 437).

الحركة الفكرية في البصرة

كانت اللغة العربية وما فيها من التراث الادبي من شعر ونثر وحكمة وقصص وأمثال الى جانب المعارف العامة الاخرى تشكل أهم مظاهر الحياة الفكرية العربية قبل الاسلام.

وعندما ظهر الاسلام ونشر بين العرب عقيدة التوحيد ووضع لهم الأسس الاخلاقية السامية لتقدم الفكر العربي (الطبري: ج 3، ص 299) كما أطلعهم على احوال الامم الاخرى فانتسعت افاقهم ومداركهم وظهرت عندهم علوم لم تكن معروفة من قبل كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه والسير والمغازي، وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات الى التفكير في خلق السماوات والارض فكانت نتيجة ذلك ان ظهرت العلوم الطبيعية مثل الجغرافية والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء وغيرها. وبذلك اصبح الاسلام الينوع الاول والاعظم للثقافة العربية الاسلامية فانطبعت حياة العرب المسلمين بطابعه سواء كان ذلك في النواحي الفكرية ام غيرها من النواحي (الذبيات، 2000: ص 19).

فقد اصبحت البصرة احدى اهم المراكز الاساسية للثقافة العربية منذ تمصيرها سنة 14 هـ حتى قيل (العراق عين الدنيا، والمريد عين البصرة) (الدينوري: ج 2، ص 222). وتعد الحياة الدينية أول مظهر من مظاهر الحركة الفكرية في البصرة كما كانت في سائر الامصار الاسلامية الاخرى فقد اتجهت هذه الحياة في ثلاث اتجاهات اهتم بالقرآن الكريم وتفسيره والاتجاه الثاني اهتم بالحديث بينما تفرد الاتجاه الثالث بالتشريع والفقه (عمر فروخ، 1981: ص 40 - 41) وكان شيوخ هذه الحركة الفكرية والدينية الصحابة الذين سكنوا البصرة وكان على رأسهم ثابت بن زيد بن قيس بن زيد بن النعمان بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن خزرج (ابن سعد: ج 7، ص 27) وشهد بديراً وكان من الستة الذين جمعوا القرآن في عهد الرسول ﷺ وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد بعثه الى اهل البصرة ليقرو القرآن الكريم ويفسره لهم ويفقههم في الدين (المزي، 1989: ج 10، ص 332).

أما من جانب الحديث النبوي الشريف فلم يكن تدوين الحديث النبوي شأناً حتى نهاية القرن الاول الهجري، وكان المسلمون يرونه مشافهة وحفظاً ولكن ما ان حل القرن الثاني الهجري حتى بدأت جماعات من الامصار العربية المختلفة تجمع الحديث على ابوابه الفقهية، وفي نهاية القرن الثاني الهجري بدأ التأليف على المساندة أي ترتيب الاحاديث بحسب رواية من اصحابها وقد مرت مرحلة تدوين الحديث النبوي الشريف التي نورخ لها بثلاث مراحل اولها: مرحلة الرواية الشفوية، بينما جاءت المرحلة الثانية مقتصرة على جمع الحديث النبوي وتدوينه على وفق ابوابه الفقهية ثم تلتها مرحلة التصنيف على المساندة (السامرائي، 1983 م: ص 145 - 152).

ولقد اسهم علماء البصرة في هذه المراحل الثلاث وبرز في هذه المدينة عدد من المحدثين مثل انس بن مالك وابن سيرين (ت 110 هـ) الامام الجليل الورع التقي من أئمة التابعين، وكان صدوقاً في الحديث اخص بموالته لأنس بن مالك عالم تأويل الرؤيا واخذ عنه حتى اشتهر بتعبيره للرؤيا تعبيراً عجبياً يدل على ذكائه وقدرته الفائقة على التحليل والمناقشة (الطبراني، 1995: ج 1، ص 292). فضلاً عن جمعه بين علوم الحديث والفقه والورع والعبادة والزهد والتعفف عما في ايدي الناس (امين، 1962 م: ص 186).

والعالم مالك بن دينار (ت 131 هـ) (ابن سعد: ج 7، ص 142) كان عالماً في الحديث ويروي عن انس بن مالك وكان صدوقاً ثقة في رواية الحديث (ابن خلكان: ج 2، ص 71 - 72) وغيره من علماء البصرة في الحديث. أما من جانب العلوم الفقهية فقد أسهم كل الصحابة الذين نزلوا البصرة في هذا الجانب. ومن هؤلاء العلماء الاجلاء وغيرهم من اهالي البصرة بدأت الحركة الفكرية التي انتشرت فيما بعد بين الامصار الاسلامية حتى قيام بغداد كعاصمة للدول العربية الاسلامية فقد استطاع علماء البصرة ومفكروها من خلال هذه الحركة العلمية ان يمدوا بغداد والعالم الاسلامي بالإنجازات العلمية والدينية والثقافية التي اسهمت وبشكل فعال في رسم ملامح النهضة الفكرية العربية الاسلامية ايام العصر العباسي الاول وصولاً بها الى الازدهار الحضاري فيما بعد.

تأسيس مدينة البصرة:

لقد اختلفت الفترة التي تم فيها تأسيس مدينة البصرة فالمجموعة الاولى من الروايات تشير الى ان تأسيسها كان في سنة 14هـ/ 1635م (البلاذري: ص 341) وهي السنة التي تم فيها ارسال عُتْبَةَ بن غزوان الى منطقة البصرة من قبل الخليفة عمر بن

الخطاب ﷺ قائلاً له " ان الحيرة قد فتحت وقتل عظيم من العجم يعني مهران ووطئت خيل المسلمين أرض بابل فصر الى ناحية البصرة وأشغل من هناك أهل الاهواز وفارس وميسان عن امداد اخوانهم على اخوانك " (الدينوري: ص 116) وعلى هذا الاساس فإن هذه الرواية تُظهر ان ارسال عُتْبَةَ بن غزوان، حدث بعد مقتل مهران في معركة النخيلة (البلاذري: ص 254). والتي على اثر انتصار العرب المسلمين فيها قام المثنى ابن حارثة الشيباني بشن الهجمات على جميع انحاء العراق بما في ذلك بابل والمناطق القريبة منها (البلاذري: ص 255) وبذلك فإن تأسيس مدينة البصرة قد تم قبل وقوع معركة القادسية والى ذلك اشار البلاذري " وكانت البصرة قد مصرت فيما بين يوم النخيلة سنة 13 هـ / 634 م ويوم القادسية سنة 14 هـ / 635 م مصرها عُتْبَةُ بن غزوان " (البلاذري: ص 256).

أما المجموعة الثانية فتذكر ان البصرة أُسست سنة 16 هـ / 637 م وان عُتْبَةَ بن غزوان خرج الى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد بن ابي وقاص من معارك جلولاء وتكريت، وجهه اليها سعد بأمر من الخليفة عمر عندما كتب اليه " أن اضرب قيروانك بالكوفة ووجه عُتْبَةَ بن غزوان الى البصرة (ابن سعد: ج 7، ص 5).

لكن يبدو ان تأسيس مدينة البصرة تم في سنة 14 هـ / 635 م وذلك لأن الروايات التي تذكر بأن تأسيس البصرة كان سنة 16 هـ / 637 م توحي بأرسال عُتْبَةَ بن غزوان الى البصرة اذا ما علمنا بأن الروايات التاريخية تشير الى ان ارسال ابي موسى الاشعري لولاية البصرة كان سنة 16 هـ ويقال سنة 17 هـ / 638 م (البلاذري: ص 341) والثابت ان ابي موسى الاشعري ولي البصرة سنة 16 هـ / 637 (البلاذري: ص 341)، وهذا يقتضي ارسال عُتْبَةَ بن غزوان قبل ذلك التاريخ اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار فترة المُغيرة بن شعبة الذي خلف عُتْبَةَ بن غزوان على ولاية البصرة قد استمرت سنتين قبل مجيء ابي موسى الاشعري (الطبري: ج 3، ص 597). يتضح ان اختيار مكان البصرة لم يكن عشوائياً بل نتج من مشورة بين عتبة بن غزوان والخلافة الاسلامية لذلك كان موقعها الجغرافي مهم في التاريخ العربي الاسلامي على جميع الاصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية كافة فمنذ تاسيس البصرة ولقرون عدة اسهم البصريون في كثير من المجالات العلمية والادبية والدينية.

إسهامات علماء البصرة في مجال الحديث والفقهاء:

أولاً: الحديث:

علم الحديث هو " علم يعرف به اقوال النبي ﷺ وافعاله واحواله.. وهو ينقسم الى العلم برواية الحديث وهو علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الاحاديث بالرسول عليه الصلاة والسلام من حيث احوال روايتها وضبطاً وعدالة ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً والى العلم بدراية الحديث وهو علم باحث عن المعنى المفهوم من الفاظ الحديث وعن المراد منها مبنياً على قواعد اللغة العربية وضوابط الشريعة ومطابقاً لأحوال النبي ﷺ (حاجي خليفة، 1941: ج 1، ص 635). للحديث النبوي أهمية كبيرة في الدين الاسلامي تلي رتبة القرآن الكريم فالكثير من آيات القرآن نزلت مطلقة او عامة فيبينها قول رسول الله ﷺ فضلاً عن تعرض الرسول لحوادث يقضي فيها او اسئلة يُجيب عنها وتصرفه في الشؤون السلمية والحربية كل هذه الامور اقتضت العناية بالحديث النبوي(الصالح، 1978 م: ص 10 - 13) الذي اخذه الصحابة عن رسول الله ﷺ لمعاشرتهم له ثم جاء التابعون فأخذوا الحديث من أفواه الصحابة (المرجع السابق، ص 50). لم يدون الحديث النبوي في عهد الرسول ﷺ كما دون القرآن فقد انصرف الصحابة الى القرآن يجمعونه في الصدور والسطور انشغلوا به عن كل شيء سواه ولكنهم لم يكتبوا حديث رسول الله ﷺ (المرجع نفسه، ص 19 - 20)، لا بل ان رسول الله ﷺ نهى الصحابة عن تدوين الحديث فعن ابي سعيد الخدري ﷺ ان رسول الله ﷺ قال: " لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليُمحه وحدثوا عني ولا حرج... " (ابن مسلم، 2000 م: ص 1251) وروي عن ابن عباس انه قال: " أنما كُنَّا نحفظ الحديث " (المصدر نفسه، ص 50). يبدو ان النهي عن كتابة الحديث النبوي كان في وقت نزول القرآن الكريم فكان يُخشى إلتباس القرآن بالحديث النوي لذلك نهى عن تدوين الحديث في سني الاسلام الاول حيث اعرض الصحابة عن تدوين الحديث لهذا السبب، وعندما جاء التابعون من بعدهم اعرضوا كذلك تدوين الحديث الاسباب نفسها التي حملت الصحابة على عدم التدوين ثم نرى التابعين في أواخر المئة الاولى من الهجرة يزيلون اسباب كراهة تدوين الحديث لا بل شجع قسم منهم على تدوينه (الصالح، علوم الحديث، ص 41).

لقد نشأ من عدم تدوين الحديث النبوي في كتاب خاص في العقود الاولى من الاسلام واعتماد المسلمين على الذاكرة وصعوبة حصر احاديث رسول الله ﷺ (الرفاعي، 197، ص 62)، ويبدو ان هذا الامر قد حدث في عهد رسول الله ﷺ او انه اراد تنبيه الصحابة فأشار الى ذلك فعن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " (مسلم: ص

48)، وقول ابن عباس: " انا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه " (المصدر نفسه، ص 50).

ان تدوين الحديث النبوي على الأرجح كان بعد ان اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية ودخل كثير من اهل البلاد المفتوحة تحت لوائها والذين كانوا حديثي عهد بالإسلام وتعاليمه فجاءت حركة تدوين الحديث حفاظاً عليه من الوضع الكاذب. لم تخلُ البصرة خلال العصر الاموي من علماء الحديث الافذاذ وبخاصة ان تدوين الحديث حدث في هذا العصر فقد عُد ابو الاسود الدؤلي ظالم بن عمرو (ت 69 هـ / 688 م) (ابن خلكان، 1978: ج 2، ص 539). من المحدثين في البصرة (الذهبي، 1983 م: ج 1، ص 36). والامام الجليل الحسن البصري (ت 110 هـ / 728 م) الذي جمع علماً رفيعاً وكان ما اسند من حديثه وروي عن سماع منه فهو حجة وما ارسل فليس بحجة (ابن حجر، 1907 م: ج 2، ص 266)، لا بل ان العلماء في البصرة كانوا يأخذون بالاحاديث التي سمعها الحسن فيروي ان محمد بن سيرين (ت 1010 هـ / 728 م) قد بعث الى الحسن يسأله ممن سمع حديث العقيقة فلما اخبرهم اخذوا بالحديث (بخاري، 1986: ج 2، ص 290).

لقد كان الامام الحسن البصري من العلماء المتبحرين في الحديث فقد روي عنه انه كان يُحدث بالحديث ثم في اليوم الثاني يُحدث بالحديث نفسه ولكنه يزيد فيه وينقص مع بقاء معناه ثابتاً (ابن قتيبة، 1985: ج 2، ص 152). ومن علماء الحديث في البصرة العالم قتادة بن دعامة السدوسي (ت 117 هـ / 735 م) الذي كان اذا سمع الحديث يختطفه اختطافاً (البيهقي، 1975: ج 2، ص 282)، كما كان يكره تكرار حديث رسول الله ﷺ في المجلس إذ يقول: " تكرير الحديث في المجلس يذهب نوره وما قلت لاحد اعد علي " (بخاري: ج 7، ص 186). ومن علماء البصرة بالحديث أيضاً ابو الشعثاء جابر بن زيد (الذهبي: ج 1، ص 37) والعالم ايوب بن كيسان السخيتاني (ت 131 هـ / 748 م) (ابن العماد، 1979: ج 1، ص 181). فقد روي ان له نحو ثمانمائة حديث وكان عالماً جامعاً ثقة ومن الثبات في الحديث (الذهبي: ج 1، ص 131). اما فيما يخص تدوين الحديث في البصرة خلال العصر الاموي فلم يمانع علماءه في تلك المدينة من تدوينه وذلك لأن مسألة تدوين الحديث كانت قد اخذ بها في ذلك العصر حيث يروي عن الامام الحسن البصري انه قال: " انما نكتبه لنتعاهده " (الخطيب البغدادي، 1949 م: ص 101) ويعني بذلك الحديث النبوي، كما وسئل العالم قتادة بن دعامة السدوسي عن كتابة الحديث الذي يسمع منه فلم يمانع لا بل انه حثهم على كتابة الحديث وأخبرهم بأن الله يكتب (المصدر نفسه، ص 103)، مستدلاً بقوله تعالى (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) (سورة طه، آية 52).

لقد احتضنت البصرة في العصر الاموي علماء فضلاء في حديث رسول الله ﷺ وكانت من الامصار الاسلامية التي تشرفت بمقدم عدد من الصحابة الاجلاء اليها فيذروا بذرة الخير فيها وأسوسوا نواة العلم والمعرفة ومن هؤلاء الذين اخذ عنهم اهل البصرة الحديث الامام الجليل انس بن مالك بن النضر ؓ الذي خدم رسول الله ﷺ تسع سنين ثم انتقل من الحجاز الى البصرة وطال عُمره فكان آخر من توفي من الصحابة في تلك المدينة سنة ثلاث وتسعين للهجرة (ابن الجوزي، 198: ج 1، ص 710 - 714).

ثانياً: الفقه

الفقه هو " علم باحث عن الاحكام الشرعية الفرعية العملية من حيث استنباطها من الادلة التفصيلية.. وله استمداد من سائر العلوم الشرعية والعربية وفائدته حصول العمل به على الوجه المشروع.. ولما كانت الغاية والغرض في العلوم العملية تحصيل الظن دون اليقين بناءً على اقوى الادلة الكتاب والسنة.. صار محلاً للاجتهاد وجاز الاخذ فيه اولاً بمذهب أي مجتهد " (حاجي خليفة: ج 2، ص 1280 - 1281). ويقول السيوطي (1951: ج 2، ص 127) في تعريف الفقه "... واحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه ان الحلال والحرام وسائر الاحكام فأسوسوا اصوله وفرعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسموه بعلم الفقه ". كانت الاحكام الشرعية في عهد الرسول ﷺ تأخذ عنه ومن غاب عن الرسول ﷺ من الصحابة كان يجتهد فيما يعرض له من الحوادث فإذا رجع الى الرسول ﷺ اخبره بما وقع له فكان عليه الصلاة والسلام اما يقره او يرده، فلما توفي الرسول ﷺ انتقل الامر في بيان الشرائع الاسلامية الى الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين (الحلي، 1906: ص 36). الذين لم يكونوا جميعهم اهل فقه وفُتياً بل كان منهم خاصة يفتون وعمامة يستقون وذلك على حسب هبة الله لهم من استعداد وعلى حسب حظ كل منهم في صحبة الرسول ﷺ والاخذ عنه (موسى: ج 1، ص 35)

في العصر الاموي اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ودخل الناس تحت لوائها افواجا فحوت امماً وشعوباً ذات حضارات وعادات

وتقاليد مختلفة فكان نتيجة ذلك ان استجدت مشكلات لم يكن للعلماء والفقهاء من الصحابة والتابعين عهد بها، وكان التشريع الاسلامي يتسع بنسبة اتساع الفتوحات العسكرية والسياسية (موسى: ج 1، ص 35)، فعمد حملة الشريعة الى استنباط الاحكام الشرعية من الادلة الشرعية فكمل الفقه وتمت ابوابه (الحلبي: ص 37).

لقد تشرفت البصرة كما اسلفنا بمقدم عدد من الصحابة الكرام ممن كان يحمل العلم والفقه كأبي موسى الاشعري (ت 44 هـ / 664 م) وعبدالله بن عباس (ت 68 هـ / 687 م) وانس بن مالك (ت 93 هـ / 711 م) الذين كونوا اساس العلم فيها وعندهم اخذ علماء التابعين في البصرة وكان الفقه احد العلوم التي اهتم بها العلماء في البصرة وذلك لاتساع الدولة الاسلامية وحاجة الناس اليه، ومن علماء الفقه في البصرة خلال العصر الاموي العالم أبو الشعثاء جابر بن زيد (ت 93 هـ / 711 م) (ابن العماد: ج 1، ص 101) الذي قال فيه ابن عباس: "... لو ان اهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عما في كتاب الله " (ابن حبان، 1968: ، ص 28)، لقد كان ابو الشعثاء من الذين أوتوا العلم وكان يفتي في البصرة وكان الصحابة مثل جابر بن عبدالله وعبدالله بن عباس إذا سألهم الناس من اهل البصرة يقولون له: كيف تسألنا وفيكم ابو الشعثاء (ابن كثير، 1988: ج 9، ص 94)؟، ويرون انهما أي جابراً وعبدالله قالاً لأبي الشعثاء: "... انك من فقهاء البصرة وسُئلتني فلا تفتنّ إلا بكتابِ ناطقٍ او سُنةٍ ماضيةٍ " (البخاري: ج 2، ص 204)، ويبدو ان ابا الشعثاء كان واسع العلم متضلعاً من الفقه وذلك إذا ذكر تعجب الناس من سعة فقهه (البسوي: ج 2، ص 12)، ومن فقهاء البصرة ايضاً الامام الحسن البصري (ت 110 هـ / 728 م) الذي جمعت له صفات قلما تجدها عند الناس فقد كان موسوعة في العلوم وكان "... من أفصح أهل البصرة لساناً وأجملهم وجهاً وأعبدهم عبادة وأحسنهم عشرة وأفقههم " (ابن حبان: ص 34)، كما كان أعلم التابعين بالحلال والحرام (البسوي: ج 2، ص 16)، حتى عُد عالم زمانه (الدياربيكري، ج 2، ص 319)، ومن الفقهاء في البصرة العالم الجليل محمد بن سيرين (ت 110 هـ / 728 م) (ابن قنفذ، 1971: ص 108) فقد كان اماماً غزير العلم وفقهياً فاضلاً ورعاً في فقهه (ابن حبان: ص 230)، فعد شيخ البصرة ومن كبار ائمة التابعين (الديار بيكري: ج 2، ص 319) ومنهم العالم قتادة بن دعامة السدوسي (ت 117 هـ / 735 م) ومع كونه مُفسراً كان من الحفاظ المعدودين في وقته ومن علماء أهل زمانه بالقرآن والفقه (السيوطي، 1973: ص 47).

لقد حظيت البصرة بهذه النخبة الطيبة من علماء الفقه الذين عقدوا المجالس والحلقات التعليمية لإيصال علمهم الى من بعدهم من الاجيال ومن هذا فقد نشطت الحركة العلمية في البصرة بشكل كبير.

المصادر والمراجع

- القران الكريم
ابن الاثير، عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم (630هـ) الكامل في التاريخ، ط3، دار الكتاب العربي، لبنان، 1980.
امين، احمد فجر الاسلام، ط2، مكتبة النهضة المصرية، 1962.
البخاري، ابي عبد الله محمد بن اسماعيل (ت 256 هـ) التاريخ الكبير، دار الفكر، بيروت، 1986.
البسوي، ابي يوسف يعقوب بن سفيان (ت 277 هـ) المعرفة والتاريخ، تحقيق: اكرم ضياء العمري، مطبعة الارشاد، بغداد، 1975.
البصري، عبدالله عيسى بن اسماعيل. تاريخ مدينة البصرة، تحقيق فاخر جبير عبدالله عطية، مطابع جامعة الموصل، 1986.
البكري، ابو عبدالله بن عبد العزيز (ت 487هـ) معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، ط1، القاهرة، 1945.
البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ). فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1956.
_____ . انساب الاشراف، نشر ماركس شلوزنجر، القدس، 1971.
ابن الجوزي، جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ) صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ط 4، دار المعرفة، بيروت، 1986.
ابن حبان، محمد بن احمد البستي (ت 354 هـ) الثقا في الصحابة والتابعين واتباع التابعين، الهند، 1968.
ابن حجر، احمد بن علي العسقلاني (ت 852 هـ) تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، الهند، 1907.
حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن اسامي الكتب الفنون (المعارف، 1941)
الحلبي، محمد بدر الدين، التعليم والارشاد مطبعة السعادة، مصر، 1906.
الحميري، محمد بن عبد المنعم (727هـ). الروض المعطار في خير الاقطار، تحقيق احسان عباس، دار القلم للطباعة، بيروت، 1979.

- ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 367هـ). صورة الارض، مكتبة الحياة، بيروت 1979.
- الخطيب البغدادي، احمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ) تقييد العلم، تحقيق: يوسف العث، دمشق، 1949.
- ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت 681 هـ) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978.
- ابن دريد، ابو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ). جمهرة اللغة، مكتبة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- الدياربيكري، حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- الدينوري، ابو حنيفة احمد بن داود (ت 282هـ). الاخبار الطوال، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1960
- الذهبي، محمد بن احمد عثمان، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق همام عبدالرحيم سعيد، الاردن، دار الفرقان، 1983.
- الذنيبات، عوض كريم اسهامات علماء الكوفة في الحركة الفكرية بغداد من 149 الى 334 هـ، اطروحة دكتوراه في التاريخ الاسلامي غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاداب، جامعة بغداد، 2000
- الرفاعي، انور. تاريخ العلوم في الاسلام (دار الفكر، 1973).
- ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر (290 هـ). الاعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، 1891هـ.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، (ت 1205هـ). تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1979.
- السامرائي، خليل ابراهيم، دراسات في تاريخ الفكر العربي، جامعة الموصل، 1083.
- الساعدي، كاظم جواد. تاريخ البصرة، مطبعة القضاء، النجف، 1959.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (230هـ). الطبقات الكبرى، دار بيروت للطباعة، 1960.
- السيوطي، جلال الدين عبد الحمين (ت 911 هـ) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم مطبعة عيسى الحلبي، 1965.
- _____ . الاتقان في علوم القرآن، ط3، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، 1951.
- _____ . طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، 1973
- الشيرازي، ابو اسحاق ابراهيم بن علي بن يوسف (ت 476 هـ) طبقات الفقهاء، مطبعة بغداد، بغداد، 1937.
- الصالح، صبيحي، علوم الحديث ومصطلحه، ط10، دار العلم للملايين، بيروت، 1978.
- الطبري ابو جعفر محمد بن جرير (310هـ). تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط3، دار المعارف، مصر.
- الطبراني، سليمان بن احمد بن ايوب (260هـ) 16-المعجم الوسيط، تحقيق ابراهيم الحسيني، ط1، دار الحرمين، الرياض، 1995.
- العميد، طاهر المظفر. تخطيط المدن العربية الاسلامية، مطبعة جامعة بغداد، 1968.
- فروخ، عمر، اثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الانسانية، مجلة المؤرخ العربي، اصدار الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد 10، 1981 م، بغداد.
- ابن العماد، ابي الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت 1089 هـ) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ط2، دار الميسرة، بيروت، 1979.
- ابن الغملاس. ولاية البصرة ومستلموها، مطبعة دار البصري، بغداد، 1962.
- الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ). القاموس المحيط، بيروت، 1983.
- ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن محمد (360هـ). مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1302هـ.
- ابن قتيبة، ابي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276 هـ) عيون الاخبار، تحقيق، يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
- ابن قنفذ، ابي العباس احمد بن حسن بن علي بن الخطيب (ت 809هـ) الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1971.
- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت 774هـ) البداية والنهاية، ط7، مكتبة المعارف، بيروت، 1988.
- ابن مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. صحيح مسلم، دار احياء التراث العربي، بيروت، 2000 م.
- ماسينيون، ل. خطط الكوفة، ترجمة تقي، مطبعة العرفان، حيدر اباد، 1936.
- المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ). التنبيه والاشراف، تصحيح عبدالله اسماعيل الصاوي، القاهرة، 1938.
- المقدسي، ابو عبدالله محمد بن احمد البشاري (ت 385هـ). احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ط2، مطبعة بريل، ليدن، 1909.
- المزي: جمال الدين ابو حجاج يوسف (ت 742هـ) تهذيب الكمال في اسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، ط3، مؤسسة الرسالة، 1989.
- موسى، محمد يوسف، تاريخ الفقه الاسلامي، دار المعرفة، القاهرة، د. ت.
- ناجي، ناجي عبد الجبار. دراسات في تاريخ المدن الاسلامية، مطبعة جامعة البصرة، 1986.
- _____ . من تاريخ الحركة الفكرية في البصرة في العصر الاسلامي في الدراسات الانسانية، جامعة البصرة، المركز الثقافي، 1991 م
- هنتز، فالتر. المكايل والاوزان الاسلامية، ترجمة يوسف العث، دمشق 1956.

اليقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله (ت 626هـ). معجم البلدان، دار بيروت للطباعة، بيروت، 1957.
ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ). لسان العرب دار بيروت للطباعة، بيروت، 1955.
اليقوت الحموي، احمد بن علي بن جعفر (ت 284هـ). البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف، 1918.
_____ . معجم الادباء، دار المستشرق، بيروت، د.ت.

The Emergence and Development of Iraqi Cities (Basra As a Model)

*Azhar Ghazi Matar**

ABSTRACT

All the historical and geographic sources gathered that Basra is the first city to be established in Islam outside the borders of the Arabian Peninsula. It was built in 14 by the Companions of Ataba Ibn Ghazwan. The main motive that led the Caliph to order was the military motive of the Caliph's desire to find a military base in the south Iraq has been transformed into a large city and an administrative center that oversees a wide area that includes many cities and regions. The geographical location of Basra and its vast area make it one of the most densely populated cities, Basra is one of the most important sources of economic resources. It is the main source of its economic resources. It is the first of its kind to be built in the first place. After the mosque of the Prophet, while the cultural aspect in Basra, where the mosque is the place of the most common aspects of life in the Islamic city where the seat of government and where the Tahtah, where disputes and meet the delegations and where the conventions and seminars, the mosque was like Basra University of Musk Received the lessons of the various science workshops, so this research came stating the motives of the city's plans to create and cultural centers in which the mission and other topics in the folds of the search.

Keywords: Basra, Iraqi Cities, Development.

* College of Basic Education, Diyala University, Iraq. Received on 7/1/2019 and Accepted for Publication on 28/4/2019.